عمو صالح

محمود سعيد*

أربعة، يسيرون ملتمّين، يحملون حقائبهم الصغيرة على ظهورهم كطلاّب المدارس، باستثناء كبيرتهم التي لم تتجاوز الثانية عشرة بأيّ حال: فهي تَسْحب حقيبتها ذات العجلات على الأرض. يمشون قليلاً، ثم يستريحون. توقفوا منبهرين بالمحطة الضخمة، بالرغم من الضوء الشّاحب. توقفوا، تلْمع عيونُهم أمام عربة مكدّسة بمئات الهدايا: أوراق لعِب، بالونات، مفاتيح سيارة بعشرات الموديلات، عرائس ولعب، تماثيل صغيرة. انظري: ديناصور، غوريلا، كلب. ما أجمل هذه السّيارة، غانننن. وحينما استحثَّتهم أختُهم الكبيرة: «ياللا.. قبل أن يفوتنا القطار،» هُرعوا وهم يتلفتون. يجذبون ثوبها للفت انتباهها:

ـ سناء، أيوجد مثل هذا في الموصل؟

ابتسمتُ؛ الأطفال هم الأطفال في كل مكان وزمان. لم أسمع جواب سناء. كانت تحثُّ السّيرَ نحو القطار تحت الأضواء الصّفر الشّاحبة، وهي تشدّ على يد أختها الصّغيرة التي لم تكن تتجاوز الثالثة. لم يَثُرْ في ذهني أيُّ سؤال عمّن سيرافقهم إلى الموصل. ثم لحظتُ امرأةً تسير وئيدًا خلفهم. أسير أنا أيضًا ببطء. توقفتُ. ربما هذه أولّ مرّة أركب القطار إلى الموصل منذ أربعين سنة. تفحّصتُ أرقام العربات القديمة، الصّدئة، التي رُقعتْ أرقامُها المعدنية المتساقطة بصبغ أبيض غير دقيق. صعدتُ. تغيّر كل شيء عمّا كان عليه قبل أربعين سنة: المقاعد آنذاك خشبية، وهذه جلدية؛ وهي أرْوَح بالرّغم من تهرّئها. صخبُ بضعة عشر شابًا يملأ فراغ العربة. بدوا من قمصانهم، المميّزة بالألوان الثّلاثة، الأبيض والأحمر والأسود، فريقًا رياضيًا. الأطفال أنفسهم يحتلون المقعدين إلى اليمين، سناء والطفلة الصغيرة، وأمامهما طفلة أخرى في الخامسة، وطفل في العاشرة يجلس جانب الممر، صَدَفَ أنْ كان مقعدي قربه يَفْصلنا الممرُّ فقط إلى يميني، بينما يتدثر عجوزٌ إلى يساري بمعطف عسكري قديم، يلفّ وجهَه بيشماغ أسود متهرئ، لا أدري أكان نائمًا أم يستعدّ لينام.

بدا الأطفال الثّلاثة سعداء بهذه التّجربة الفريدة ـ ركوب القطار لأول مرة ـ ينظرون من النّوافذ إلى أرصفة المحطة القذرة، عبر الفضاء، الجهة الأخرى. يعدّلون جلستهم. يثيرهم أيُّ شيء. يضحكون بقوة، بسعادة، لأيّ كلمة يلقيها أحدهم. أما سناء فقد استلّها تفكيرٌ عميقٌ بشيء ما.

تذكرتُ المرأة. ترى أين جلستْ؟ لم أرها. أيمكن أن تكون غريبة عنهم؟ ربما. التفتُّ إلى اليمين حيث بابُ العربة. رأيتها واقفةً، تنظر إليّ، وتستدعيني بحركة سبّابتها، يختلط في عينيها حزنٌ ورجاءٌ عميقان. كرّرتِ الحركةَ غيرَ مرّة. كدتُ أهتف متسائلاً: «أنا؟!» لكنّها وضعت السّبابةَ نفسَها على فمها، أنِ اسكتْ. نهضتُ. اقتربتُ منها. في خمسيناتها، نحيفة، بقايا جمال أهملته مصائبُ لا حصر لها. عباءة مقحلة، ثوب مُحْكم من البازة البيضاء المنقّطة، جديلتان شهباوان تنسدلان على صدر ممتلئ. ما إن اقتربتُ منها حتى نزلتْ درجاتِ القطار بحذر. ثم التفتتْ إليَّ. نزلتُ وراءها. غامت عيناها:

ـ يبدو أنك إنسان طيّب.

أَمسكتْ كفّي. ابتسمتُ باهتمام. همستْ:

ـ لي خدمة بسيطة، أرجو أن تقوم بها، الله يوفّقك، اللّه يخلّيك!

ـ ما هي؟

ـ قبل كل شيء، عِدْني أن تقوم بها.

ـ قبل أن أعرف؟

* ـ كاتب عراقي.

ـ إنّها بسيطة: أن تبقى مع الأطفال حينما يقف القطارُ في الموصل حتى يصل عمُّهم.

ـ بسيطة.

ـ أتفعلها؟

ـ نعم.

أَخرجتْ مصحفًا صغيرًا من جيب ثوبها «البازة» البيضاء المنقّطة بالأسود: أَقْسِمْ!

ابتسمتُ: لا حاجة للقَسَمِ. أفعل!

ـ بل أَقْسِمْ!

سحبتْ كفّي لتقبّلها.

ـ لا داعي لكل هذا.

ـ أَقْسِمْ!

أَقسمتُ.

ـ لن تتركهم حتى يتسلّمهم عمُّهم صالح.

ـ أفعل.

ابتسمتْ:

ـ تبدو طيبًا. توقعتُ ذلك.

أضافتْ:

ـ ماتت أمُّهم في ولادة هناء، قبل ثلاث سنوات. حصار، لا يوجد مُعقِّم. أصيب أبوهم بالسّرطان في السّنة نفسها، من القهر، أو من اليورانيوم المنضّب؛ لا أحد يدري. مهندس في قاعدة التاجي. تعرفها أنت؟ دُمِّرتْ في حرب الكويت. مات قبل ثلاثة أشهر. سامحهم صاحبُ البيت من الإيجار ستة أشهر. بعنا كلَّ ما لديهم. لم يبقَ لهم شيء في بغداد.

ـ أتعرفين عمَّهم؟

ـ لا، لكنّه سيأتي لاستقبالهم في المحطة.

ـ أأنت متأكّدةٌ أنّه سيأتي؟

فتحتْ ذراعيْها بعباءتها المقحلة على وسعهما:

ـ كيف لا؟ اتصلتُ به ثلاث مرات. الاتصالات وحدها كلّفتني عشرةَ آلاف دينار. طلعتْ روحي حتى وجدتُ رقمه. ثلاثة أشهر، وأنا أبحث عنه. أخيرًا وفّقنا اللّه.

ثم لَوَتْ رقبتها باستعطاف والدموعُ تملأ عينيها:

ـ أنت تَعرف المصائبَ الآن: خطف الأطفال، التّفجيرات، القتل. تُسلّمهم بيد عمهم صالح.

❖ ❖ ❖

جذبتْهم حركةُ القطار نحو النّوافذ، لكنّها خيَّبتْ آمالَهم بعد قليل، إذ لا شيء يستحقّ النّظر: أضواء الكاظمية تأتي خافتةً من بعيد، رؤوسُ النّخيل سوداء في الليل كالدبابيس. وسرعان ما انقطع ضوءُ أعمدة الكهرباء بانتهاء ضواحي بغداد، فابتعد الأطفالُ عن الشّبابيك، وأثّرتْ حركةُ القطار الرّتيبة في الأطفال حتى كادوا يُغْفون في مكانهم لولا أن فاحت في الجو رائحةُ الطّعام: كباب مشوي، مقلي، شاورما، بيض، عنبة. أَخرج شبابُ الفريق الرياضي ساندويشاتهم، وأخذوا يقضمونها مع النكات، والقهقهات، والتّعليقات، وتبادل أنخاب البيبسي والسّفن أب.

التفت الطّفلان نحو سناء. هَمَسا ببضع كلمات، بينما كانت الصّغيرة الجالسة قربها تنظر إليها بتضرّع. نهضتْ، تناولتْ حقيبتَها من الحافظ الشبكي في الأعلى، أنزلتْها، وعيونُ الثّلاثة معلّقةٌ بحركة يديها. ثم أخرجتْ كأسًا صغيرةً، ومنشفةً صغيرةً فتحتْها عن أربعة أقسام متساوية، لقرص خُبْزٍ كانت أعدَّتْه لمثل هذه اللّحظة. ناولتْ قطعةَ خبزٍ لكل منهم، ولفَّتْ قطعتَها. أَرجعت الحقيبةَ إلى مكانها، ثم نهضتْ إلى المغاسل القريبة، وملأتِ الكأس بالماء. ثم جاءت، فأخذ الأطفالُ يأدمون الخبزَ والماء.

قال الطّفل: غدًا سنأكل في بيت عمّو صالح.

ردّت الوسطى وهي ترى الفريق الرياضي يشرب المرطِّبات: وسنشرب البيبسي.

ـ السفن أب.

ـ عصير البرتقال.

ـ سنلعب مع ابنته.

ثم التفت إلى سناء، وسأل: ما اسمها؟

ـ لا أدري.

تدخل الطّفل:

ـ لنسمِّها: «لا أدري!»

ضحك الجميع.

ـ كم عمرها؟

ـ لا أدري.

تدخّل:

ـ ليكن عمرُها «لا أدري.»

ضحكوا مرة أخرى. أضافت الوسطى:

ـ إنّها تتعلم في مدرسة «لا أدري.»

أحسستُ بالسعادة، وأنا أراقبهم من حيث لا يشعرون يضحكون بسعادة وبراءة.

ـ تسمعون كلام عمّو صالح.

ردَّدوا جميعًا، وكأنهم سمعوا هذه الجملة عشرات المرات: نعم. كلام زوجته. نعم. لا تعاكسوا ابنتَه، كما كنتم تفعلون مع زينة ابنة الست كوثر. لاااااا. ثم اندمجوا جميعًا في قهقهة طويلة.

فيهم جميعًا أشياء موحّدة: شعر كستنائي فاتح، بياضٌ نقي، أعينٌ شهْل واسعة، يبدو خطُّ الزّرقةُ فيها ضعيفًا يميل نحو الاخضرار. شفاهٌ رفيعة مزمومة. بدأتُ أقرأ في المجلة التي كانت معي. الطّفل أقربُهم إليّ. التفتَ نحوي: «كان أبي يقرأ المجلة نفسها: **العلم المعاصر**.» ابتسمتُ: «وأنتَ؟ ألم تحاول أن تقرأها؟» «صعبة، مازلتُ في الصّف الرّابع فقط. أنظرُ إلى الصّور فقط.» قطع حوارَنا صوتُ أخته:

ـ ضياء، لا تزعج الرّجلَ بأسئلتك.

ـ لا، لم يزعجني.

نهضتْ سناء، ويدُها بيد الصّغرى، نحو المرافق القريبة. وعندما جاءت هزّت الوسطى، التي كان النعاسُ يراودها، من كتفها برفقٍ وهي تهمس: «رجاء. هيّا. تعالي معي إلى المرافق، قبل أن تنامي.»

بعد ذلك جاء دور ضياء:

ـ أنت أيضًا، تعال.

ـ أأنا صغير؟ رجل، أذهب متى أشاء.

أصرّت: «تعال.» قلت له: «اذهبْ.»

سألني بعد مجيئه: «هل زرت الموصل؟»

ضحكتُ: «قبل أربعين سنة.» قهقه مستغربًا، كأنّه لا يصدّق أن يعيش المرءُ مثلَ تلك المدة: «أربعين سنة؟» «نعم.» «لابدَّ أنّك نسيت كل شيء!» «لا أعرف. ربما تغيّر كل شيء. ربما بقي شيء ما. غدًا أعرف.» «أكان أيوجد فيها ملاعب كرة قدم مثل بغداد؟» ابتسمتُ: «لا، كنا نلعب في الخلاء.» و«الآن؟ لا بدّ أن يوجد! في المدارس على الأقل! أنا أحسنُ لاعب كرة قدم في الصّف. مهاجم درجة أولى. سأكون في المستقبل من ضمن الفريق العراقي.» ابتسمتُ: «لا شك في ذلك.» التفتَ إليَّ بجدّ: «كيف تؤكّد ذلك؟ أرأيتني ألْعب؟» هززتُ رأسي: «لا، لكنّ الإنسان يصلُ إلى ما يريده إنْ أصرّ.» قال بما يشبه الهمس: «أبي كان يقول ذلك.» ثم التفت إليَّ، وقال باهتمام: «لم أكن أريد أن أترك بغداد، أصدقائي كثيرون، لكنْ أين نبقى؟ ليس عندنا فلوسُ الإيجار.» «مَنْ هي تلك المرأة، أُمُّ العباءة، التي ودّعتكم في المحطة؟» «ست كوثر جارتنا. معلمة متقاعدة. زوجُها معلّم متقاعد أيضًا.» «أهي قريبة؟» «لا، ليس عندنا أقرباء غير عمي صالح، لكنّنا لم نره. أيوجد في الموصل تفجيرات مثل بغداد؟» صفعني السؤال. «نعم.. كما في العراق كلّه.» لم يقل شيئًا. عتمتْ عيناه بقسوة. تثاءب. بدأ يقاوم النّعاس. ثم أغفى. أعداني تثاؤبُه. وبين اليقظة والمنام رأيتُ سناء تنهض تتفقّد إخوتَها واحدًا واحدًا، تغطّيهم، تعدّل من أوضاعهم وهم نائمون، قبل أن تُغْمض عينيها.

❖ ❖ ❖

ـ حمار!

لستُ أدري مَنْ صرخ بالكلمة، لكنّي سمعت قهقهةَ الفريق الرياضي، وضحكَ الأطفال، قبل أن أسمع نهيقَ الحمار. فتحتُ عينيّ. الأطفال مستيقظون، يتجمعون على الشبّاك. حمار ينهق يختفي. بيوت طينية تختفي. تلال قحلاء تتوالى. يلمع بين الحين والحين على الجانبين مرمرٌ أبيضُ ناصعٌ. سمعتُ كلمتيْ «حمام العليل،» ثم دخل بعد قليل القطارُ في نفق. انطفأت الأضواء وساد الظلام. صرخت الصّغيرة. هتفتْ سناء بصوت مضطرب: «لا تخافي، حبيبتي.» ربما كانت هي خائفة أيضًا. قلتُ مطمئنًا: «لا تخافوا. إنْ هي إلا بضع دقائق فقط. إننا ندخل النفق.» «ما النفق؟» ميّزتُ صوتَ ضياء. أجاب صوتٌ رجوليٌّ من الأمام، ربما من أحد أعضاء الفريق الرياضي: «هه.. هه.

طريق تحت الجبل.» أكملتُ: «سنصل الموصل خلال عشر دقائق.» ساد الصّمت. فجأةً خرج القطارُ من النفق. غمر الضوءُ الرقيقُ العربةَ. لاحت من بعيدٍ بيوتٌ متراصّة من طابق واحد. أعمدةٌ كهرباء. غبارٌ في غير مكان. ملأت الفرحةُ تقاطيعَ الصّغار: «وصلنا الموصل، سيأتي عمو صالح.» سألتْ رجاء: «سيأتي عمو صالح لاستقبالنا مع ابنته وزوجته، أم وحْده؟ لا أدري.» قال ضياء: لن تأتي ' لا أدري ' معه، إنَّها في المدرسة.» ضحكوا بسعادة فائقة مرة أخرى، ثم انطلقوا يعلّقون، ويقهقهون حتى توقف القطارُ في حدود السابعة صباحًا.

تزاحَمَ الفريقُ الرياضي قبل الجميع على فتحة الباب، بينما كانت سناء قد لمّت إخوتها أمامها، نشرتْ ساعديها، تحيطهم، لتمنعهم من النّزول. احترمتْ رغبتَها، أسرعتُ نازلاً. وقفتُ في مدخل المحطة أرقبهم من بعيد. بوابة المحطة هي المنفذ الرئيس إلى المدينة. عندما كنتُ صغيرًا، وقبل أن يعبّدَ طريقُ السّيارات بين الموصل وبغداد، كان القطارُ هو الوسيلةَ الأولى والأخيرةَ للسفر. آنذاك كانت المحطة تتألق مزهوّةً ـ رغم صغرها ـ بجدران المرمر البرّاقة؛ لكنَّها بدت الآن قذرة، مهملة، شبه مهدمة، تَصْدم العينَ.

قرصني بردُ الموصل حين نزولي، فخرجتُ من المحطة لأتمتع بحرارة الشّمس الخفيفة. لكنْ لم يكن بمقدور الأطفال أن يخرجوا؛ كانوا يقاومون البرد بوقوفهم متراصّين وحدةً واحدةً، بيدِ كلِّ واحدٍ منهم ورقةٌ، يرفعها إلى الأعلى. لستُ أدري متى أَخرجتْ سناء تلك الأوراقَ، كلُّ ورقة فيه كلمةٌ واحدة فقط: «صالح.»

لم يَدْخل البوابةَ أيُّ مستقبِل. جاء رجل في الخمسين، «زبون» تقليدي مع حزام عريض، كنتُ أظنُّه اختفى، مع يشماغ أسود وعقال حريري يلمع. ظلَّ واقفًا خارج الباب في الشمس. ابتسم عندما شاهد شابةً محجَّبةً حاملاً، تسير مع عجوز تَجْنح في مشيتها نحو اليمين. ثم جاء عسكريٌّ ضخم متجهِّم الملامح وبرفقته مراهقة محجَّبة تبدو ابنتَه، وقفا خارج المحطة أيضًا، واستقبلا امرأةً وشابين، في عناقٍ وقُبَل. بعد دقائق خَلَت المحطةُ إلاّ منّا. بدت شديدةَ الكآبة، أرضيةُ المرمر فيها منقوشةٌ بحفرٍ مليئةٍ بوحولٍ جافة. ثمة مسطبة خشبية يتيمةٌ لم يبقَ من مسندها سوى لوح وحيد بعرض سنتيمترين. جلس الأطفالُ على المسطبة: الصغيرة هناء في حضن سناء، ورجاء إلى اليمين. ظلَّ ضياء واقفًا. أعينُهم على الباب المفتوح، وبأيديهم أوراقُ «صالح» غيرُ مرفوعة.

كان البرد قارسًا بالرغم من الشمس المشرقة. توجَّهتُ نحو المدفأة الكهربائية. مددت يدي؛ المدفأة باردة. كانت قبل أربعين سنة تكوي اليد. كلُّ شيء إلى خراب: تلك سُنّة الحياة عندنا. فجأةً انتصب رجلٌ أعرج، في يده مكنسةُ خوصٍ مثبتةٌ إلى عصا طويلة، وأخذ يكنس أرضيةَ الصالةِ المليئة بالحفر. بدا كقروي لم تستطع المدينةُ اجتثاثَ جذوره. نَبَرَ، بعربية مكسّرة، وبفظاظة:

ـ اخرجوا! لا مستقبِلين بعد الآن. اخرجوا!

أَظلمتْ أعينُ الأطفال. تحرّكتْ عندهم غريزةُ الدفاع عن النفس. التحموا واحدهم بالآخر، لكنّهم لم يتفوّهوا بأيّة كلمة. انتقلتْ نظراتُهم بين سناء والأعرج. كنت خارج الباب. أخرجتُ سيجارةً أجنبية، تقدمتُ منه. قلتُ بما يشبه الهمس كي لا يسمعوا حديثنا:

ـ تفضّلْ. لن يضايقك بقاؤهم هنا بعض الوقت. هه. أليس كذلك؟

أسند عصا المكنسة إلى صدره:

ـ سيأتي المفتِّش بعد قليل.

ـ لكلِّ شيءٍ حينُه.

ـ أَهُمْ معك؟

ـ نعم.

أشعلتُ السّيجارة له. امتصَّ دخانَها بعمق. أغمض عينيْه، ثم فتحهما. نظر إلى السّيجارة برضىً. انسحب في ممرّ جانبي واختفى.

❖ ❖ ❖

مضت نصف ساعة تقريبًا. بكت الصّغيرة: «متى يأتي عمو صالح؟ إنّي جائعة.»

ـ لا تبكي، حبيبتي.

فتحتْ سناء الحقيبة. أخرجتْ كسرةَ الخبز. تجمّع الثّلاثةُ حولها، وأعينُهم على الخبزة الصّغيرة. قسَمَتْها بينهم. هتف ضياء:

ـ وأنتِ؟

ـ سآكل في بيت عمو صالح.

ـ ماذا سنأكل؟

ـ لا أدري.

ـ قيمر.. وعسل.

ـ لا أدري.

ضحك ضياء: «سنأكل وتأكل معنا 'لا أدري'.»

فجأةً لاح الأعرج، كأنّ الأرض انشقّتْ ولفظتْه. صرخ بكل قوة:

ـ أما زلتم هنا؟ اخرجوا.. دعوني أنظّفْ.

كنتُ في الخارج أيضًا. دخلتُ. ابتسمتُ. أخرجتُ علبة الدخان. ناولتُه سيجارةً أخرى. أشعلتُها له قبل أن يَفْتح فمه، ثم دسستُ بضعَ ورقاتِ نقدٍ في يده من دون أن يراني الأطفال. اختفى من جديد.

ـ تسمعون كلام..

أكملوا: «... عمو صالح!»

ظللت واقفًا، ظهري إلى الأطفال. طفقتُ أدخّن.

نهضتْ. حملت الصّغيرةَ على كتفها. دخلتْ غرفة الحمام. غسلتْ وجهَها، نشّفتْه. بدت الصّغيرةُ فائقة الجمال. ثم توجهتْ نحو رجاء: «تعالي.» «ليس الآن.» «بل الآن، قبل أن يأتي عمو صالح. لم تغسلي وجهَك بعد نوم القطار.» أمسكتْ يدها، سحبتْها، وما إنْ خرجتْ حتى توجّه ضياء نحو الحمام من دون أن تناديه، قال: «لا حاجة لمرافقتي.» انتظرتْه لكي يخرج، ثمّ أخذتْ تصفّف شعرَه المبلّلَ بمشط صغير، وهو يتأفف.

تجاوزت السّاعة التّاسعة. بدأ الأطفال يلعبون. أمسكوا بأيدي بعضهم بعضًا وأخذوا يدورون ويغنّون: «يا أرضنا الحلوة..»

نهضتْ سناء، دخلت الحمّام. أحسّوا باختفائها. توقّفوا عن اللّعب. خرجتْ وعيناها محتقنتان بالدّموع، وآثارُ ضبطها لنفسها تمزّق تقاطيعَها الجميلة. تجمّعوا نحوها. سألتْها رجاء: «أسيأتي عمو صالح؟» لم تجب. تجاوزت الساعة العاشرةَ والنّصف. كانت تنظر نحو باب المحطة، وهم ينظرون معها. دخلتِ الحمّامَ، وخمّنتْ أنّها كانت تبكي هناك ثم ترجع. هتف ضياء: «هيّا نلعبْ.» بكت الصغيرة: «إنّي جائعة.» نهضتْ سناء، وقالت بصوت عالٍ: «سنلعب جميعًا، أنا معكم. كوّنوا حلقةً كبيرةً.» أخذوا يدورون حول أنفسهم، وبأيديهم أوراقُ عمو صالح: «يا أرضنا الطّيبة.» ابتسمتُ. خرجتُ. التفتُّ. عادت الغيوم تفتك بعينيْ سناء؛ لم تستطع أن تُكْمل. انسحبتْ إلى المقعد. وضعتْ كفيّها الصغيرتيْن على وجهها. انفجرتْ في بكاء مرّ طويل، فهرع الجميعُ نحوها وأوراق «صالح» تتساقط من أيديهم على الأرض. عانقوها وهم يبكون.

الولايات المتحدة